

مقامات الحريري

بقام : الدكتور محمود فرجي مجازى

أقسم بالله وأياته
ومشعر الحج ومقاته
أن الحريري حرى بأن
تكتب بالتر آياته
الزمخري

ترجمتين هامتين ألقتا عن الحريري ، الأولى في كتاب ياقوت الحموي : ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، والثانية في كتاب وفيات الأعيان لابن خلkan . جمع ياقوت في ترجمته كثيرا من الاخبار حول الحريري ومقاماته وتأليفها ومكانتها، استقاها من كثير من المصادر المدونة أو الروايات المتنافلة ، وكان ياقوت يفرق فيوضوح بين المصادر التحريرية التي يقدم لها بقوله : « قرأت بخط ٠٠ » (٢٦٦ / ١٦) ، أو : « قرأت في كتاب ٠٠٠ » (٢٦٩ / ١٦) ، أو : « نقلت من

* انظر حول مصادد ترجمة الحريري :
الشتب البليوجراف القيم الذي أعده الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم في تعليقاته على ترجمة الحريري الواردة في كتاب : «أنباء الرواية على أنباء النهاية» (نقضي ، ٣ : ٢٣) القاهرة ١٩٥٥ وقد ذكر حوالي عشرين كتابا وردت بها أخبار عن الحريري .

أولاً : الحريري : ثقافته ومؤلفاته
ينعقد الرأي في كتب الأدب والطبقات والتراجم العربية ، التي وصلت إلينا ، على أن أبا محمد القسم بن محمد الحريري (٤٤٦ - ٥١٦ هـ) مؤلف ذكي تقدم بفن المقامة بعد ظهوره على يد بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) بلغ به أوجه الفن . وقد أفرد كل من العماد الأصفهاني في « الخريدة » ، وياقوت الحموي في « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » ، وكذلك ابن خلkan في « وفيات الأعيان » ، صفحات كملة للحديث عن ذكاء الحريري وشهرة ملامته وأسلوبه في رسائله . لقد ترجمة عشرات الكتب للحريري واهتم أصحابها به اهتماما بعيدا * . وحسينا هنا أن نشير الى

نشر ديلاتر دراسة باللغة الفرنسية عن الحريري وكتاباته^(٢) ، وقبل أن ينتهي القرن التاسع عشر كانت المقامات قد نشرت مرة أخرى في أوروبا مع تعليقات نحوية ونقدية وتاريخية للمستشرق شتاينجاس^(٤) . ومع بداية البحث العلمي في الجامعات العربية بدأ الاهتمام بالحريري ومقاماته وكتب عنها كثير من الباحثين ، فبحث المقامات ضمن الأطار (الشري) العام أو كفن أدبي لتميز ؛ نجد هنا مثلاً عند الدكتور شوقي ضيف في كتابه: « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » و « المقامات » .

ولد أبو محمد ، القاسم بن علي ، الحريري صاحب المقامات في بلد قريب من البصرة ، ونشأ بها ، ثم سكن البصرة (يافوت ١٦/٢٦١)، ولا تمننا المقادير بتفاصيل ذات قيمة عن حياته المبكرة ، أو عن نشأته وثقافته ومكانته العلمية ، بيد أنها تتفق على حدة ذكائه وأهمية مقاماته ، يقول العmad الأصفهانى في الخريدة : « طلعت ذكاء ذكائه في المغرب والشرق ، وامتلاً ببضائع فوائده ونواصع فرائده المشتمل والمعرق » . ويقول ياقوت الحموي في ارشاد الأريب : « وكان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة ، وله تصانيف شهد بفضلها وتقر بنبله ، وكفاء شاهدا كتاب المقامات التي أبر بها على الأوائل وأعجز الآخرين » . ويقول ابن خلkan في وفيات الأعيان : « إن الحريري رزق الخطوة التامة بعمل المقامات ، وقد اشتغلت على كثيرون بلاغات العرب في لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ومن عرفها حق معرفتها استدل على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزاره مادته » .

Delatre : Hariri, sa vie et ses écrits. La Revue Orientale, Paris, 1853.

Steingass : Hariris Assemblies, Arabic text with Englishes, grammatical, critical and historical, London, 1897-8.

خط ٠٠ « (٢٧٣/١٦) ، وبين الروايات الشفوية التي تبدأ بعبارة مثل : « حدثني من أثق به ٠٠ » ، أو : « حدثني أبو عبدالله ٠٠ الديشى » (١٦/٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) . وفوق هذا وذاك فقد ضمت ترجمة الحريري عند ياقوت عدداً من الرسائل التي دبجهما الحريري ، وأرسلها إلى سعيد الدولة ، والى ابن التلميذ ، والمؤيد بن اسماعيل الطفراوى ، كما جاء ياقوت كذلك في هذه الترجمة بالرسالتين المشهورتين السينية والشينية ، وكلتاها من رسائل الحريري ، ولذا يعتبر كتاب ياقوت الحموي من أهم المصادر لدراسة الحريري . أما ابن خلkan فقد أفرد للحريري ترجمة موجزة أخذ مادتها عن المخريدة للعماد الأصفهانى وابناء الرواة للقطعى والذيل للسمعانى ، وأخذت كذلك عن الجواليقى ، وبجانب هذا فقد اطلع ابن خلkan نفسه على عدد من نسخ المقامات المكتوبة بخط مؤلفها نفسه وعلى شروح أفت عليها ، مما جعل للاحظاته أهمية في دراسة ظروف تأليف المقامات واهدافها .

وفي العصر الحديث اهتم المستشرقون بالحريري ومقاماته في وقت مبكر نسبياً ، وشغل المستشرق الفرنسي المعروف دي ساس بالحريري ومقاماته، فنشر بعضها سنة ١٨٠٦^(١) ، ثم قام بجهد مشهور في نشر المقامات وشرحها ، وطبع هذا العمل سنة ١٨٢٢ ، وما لبثت المقامات ان طبعت طبعة ثانية في مجلدين بين عامي ١٨٤٧ - ١٨٥٣ . وأنجح طبع المقامات في أوروبا مجال الاشتغال بها بين دارسي الأدب العربي في الجامعات الأوروبية ، فترجمتها برستون إلى اللغة الإنجليزية^(٢) ، ثم

Sacy, de : Chrestomatie Arabe, Paris, 1809.

وقد جعل دي ساس لهذا الكتاب عنواناً عربياً هو :

كتاب الانس المفيد للطالب المستفيد .

Preston : Makamat or rhetorical anecdotes, translation with annotations, London, 1850.

الثقافتين متوازيتين . ليس القاسم بن محمد الحريري من أصحاب النطق أو الفلسفة أو الطب ، بل هو من ثقفو العلوم العربية من نحو ولغة وأدب وما يرتبط بهذا وذلك من ثقافة قرآنية وعمرقة بأيام العرب وأمثالها . وكل هذه العلوم وصفها اللغوي العربي ابن الأبارى (ت ٥٧٧ هـ) في كتابه : « نزهة الالبا في طبقات الأدب » ، بأنها هي « علوم الأدب » ، وتضم هذه العلوم المجالات الآتية : التحو ، واللغة ، والتصريف ، والعرض ، والقوافي ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم .

وإذا نظرنا في مؤلفات الحريري ، وجدناه في امتحانات أيضا – يصدر عن معرفة عميقة بهذه العلوم الأدبية ، فهو لا يكتفى في التحو بما يقيم العبارة ، بل يفرد للقضايا النحوية مقامة كاملة ، وهو لا يكتفى في الفقه بما يحتاجه المسلم في سلوكه وتفاصيله وتعامله ، ولكنه يتجاوز هذا إلى تأليف مقامتين تضمان عددا من القضايا الفقهية . وهو لا يقع باللفظ السهل أو الجزل المعب في يسر وسلامة ، وهل كان ذلك جائزًا في ذوق القرن الخامس الهجري ؟ لقد كانت الفكرة القائلة بأن الأجيال السابقة قد أبدعت واجهتها وحددت إطار البراعة في التعبير والإجادة فيه – تيارا سائدا ، كانت الأجيال السابقة قد خلقت عددا من الأساليب الفنية في التعبير وأعججت بها فسعت إليها ، ولكنها كانت في عصر الحريري ثم أصبحت هدفا في ذاته . كانت هذه الأساليب التي نمت على مر الأجيال ، قد تحولت في عصر الحريري إلى تقليد تعبيرية راسخة ينشدها كل من أراد تعبيرا يسمى على مستوى الحاجات اليومية المتغيرة . كان الفكر – في رأيهما – قد آتى قمة ثماره، فتركزت جهودهم

ومثل هذه العبارات كثيرة في كتب الطبقات التي ترجمت للحريري .

غير أنها نقف قليلا عند عبارة موجزة جاء بها ياقوت وهو يتحدث عن الحريري فقال انه قرأ «الأدب» على أبي القاسم الفضل بن محمد القصباني ، وهذا الفضل شخصية معمرة يبدو أن تتمد الحريري عليها هو ما أتاح لصاحبها أن يدخل التاريخ ولكنها تستطيع أن تعرف على ثقافة الحريري إذا نظرنا في مؤلفاته ، فله المقامات ، وله في النحو واللغة ، وله عدة رسائل . وهذه النقط العامة تتيح لنا في ضوء ما وصلنا من معلومات عن الحياة الثقافية في عصر الحريري أن نحدد معالم الإطار الثقافي العام الذي تكونت بداخله معارف الحريري . كانت الدولة الإسلامية قد عرفت – بصفة عامة – إطارين ثقافيين تمييزين يدخل فيما أكثر المساهمين في الحياة الثقافية والفكرية والعلمية ، فالبيئة الأولى كانت تهتم أساسا بعلوم العربية وبالدراسات الإسلامية مع خلاف في نقط التركيز والاهتمام ، بينما عرفت البيئة الثانية اهتماما بالعلوم الفلسفية والمنطق والفلك والرياضيات والطب مع خلاف كذلك في نقاط التركيز والتأليف . صحيح أن كثريين قد استفادوا من الفلسفة أو المنطق في دراسة المادة العربية أو الإسلامية المأثورة ، وصحيح أن أصحاب المنطق والفلسفة كانوا يعرفون قدرًا من التحو ، ولكن الحد الفاصل بين البيئتين الثقافية والبيئتين الثقافية والبيئتين التي ظل قائما ، وكثيرا ما احتدم النقاش في القرن الرابع والقرون التالية بين هؤلاء وأولئك ، لعل موقف السيرافي النحو (ت ٣٦٨ هـ) – مثل الثقافة العربية الإسلامية – من الثقافة اليونانية بمنطقها وفلسفتها وما يقول به ممثلها متى بن يونس القنائي ، مثال واضح على وجود البيئتين

النص نستطيع ان نقول ان اخريرى اتف منه ما ته
بين عامى ٩٥٥ هـ ، ١٥٠٢ هـ ، ويؤيد مارجويوت
هذا ارأى في دارة المعرفة الاسمي مسيها
على سجنه دعث بين اخريرى اشار الى دخول
اصليين سروج ، اي ان اندمت اتف بعد هذا
احدث اى وقع سه ٩٠٨ هـ ، وهذا نستطيع
ان نقول ان اندمت تمت هي تسعة سنوات من
حياة اخريرى .

هذا ويدرك ابن التلميذ نفسه انه طلب من
اخريرى عقب سماعه للمقدمات عليه « ان ينظم
في التحو مختصرا يحفظه ابتدئون ، فشرع في
نظم هذه الارجوزة ، ثم يقول ابن التلميذ :
« وأملي على منها أبوابا يسيرة ، وانحدر
من غير اتمامها واستعاد مني ما أملأه ليحرره
فكابته دفعات اقضيه بها : (= أطالبه بها)
وأذكره بانفاذها وانفاذ كتابه : درة الغواص في
أوهام الخواص » (٢٨٤/١٦) . نخرج من هذا
النص بأن المقدمت سابقة على الملحة تالية ، وفوق
هذا فيدو لنا من رد اخريرى عليه أن الملحة لم
تؤلف دفعة واحدة ، يقول اخريرى : « أما الملحة
ان أمكن تفيذهما (= ارسالهما) مع أحد
المترددين الى هنا المكان لألحق بها الزيادة
وأذهبها كما يطبق الارادة فلاؤزع به ، وأما درة
الغواص في أوهام الخواص فارجو أن ينشئه
الاصعاد الى بغداد لتصفحها من البدء ، وكأن قد
٠٠٠ سخة الكتاب الثاني هو المقذ مع الملحة
المذكورة » (٢٨٥/١٦) . وهكذا يتضح لنا أن
ملحة الاعراب ودرة الغواص قد ألقتا بعد
القامات . أما شرح ملحمة الاعراب فلا شك أنه
ألف بعد الملحة نفسها . تبقى بعد هذا من مؤلفات
احريرى رسائله المدونة وديوان شعره ، وهذه
وهذا من تاج قلمه على مر السنين ، ومن الصعب

في اجاده التعبير والبراعة في ذلك . وفي تعقide
ذلك بكل الوسائل المتاحة . فدان بن سعيد السجع
والجناس والطباق دليل البراعة ، ودون تصريح
العلوم وأثره القضايا العلمية في الكتابة التراثية
الفنية شاهدا على الثقافة والمعرفة ، وما القضايا
العلمية التي يمكن أن يثيرها أحد مملى الثقافة
العربية الإسلامية كاحريرى إلا قضايا التحو
واللغة والفقه ، مما ابعده عن قضايا انتطق
والرياضيات والفلسفة ، وجواب تفتقه هذه
واضحة في مقداته حق الوجود .

ذكر ياقوت (٢٧١/١٦) أن اخريرى صنف
الكتب الآتية :

- ١ - المقامات .
- ٢ - درة الغواص في أوهام الخواص .
- ٣ - ملحمة الاعراب .
- ٤ - شرح ملحمة الاعراب .
- ٥ - رسائله المدونة .
- ٦ - شعره .

ولم تستدرك كتب الطبقات الثانية لياقوت
 شيئاً جديداً أضافه إلى قائمة مؤلفات احريرى
(انظر مثلاً انباء الرواية ٣/٢٥) .

وليس من الصعب أن نرتّب هذه المؤلفات
ترتيباً تاريخياً ، وذلك اعتماداً على
النصوص الواردة للحريرى وعن الحريرى في
ارشاد الأريب لياقوت الحموي . يذكر ياقوت
أن ابن التلميذ كتب إلى الحريرى « في سنة خمس
وتسعين وأربعين عند ابتدائه عمل المقامات » ،
ثم ذكر بعد ذلك أنه « وقع الاجتماع به في سنة
أربع وخمسين في بغداد » وأنه كان قد « سمعها منه
عدة دفعات » (٢٨٣/١٦) . وعلى أساس هذا

أهمية كبرى ، اذ أنه يفيد كمنطق أساسى فى دراسة الاستخدام اللغوى للعربية فى العراق فى أوائل القرن السادس الهجرى . هذا وكان اللغويون القدامى قد اهتموا بالدرة اهتماما بعيدا، فشرحت عدة شروح وتعليقات أشهرها :

١ - شرح الشهاب الخفاجى (ت ١٠٦٩) وقد طبع هذا الشرح سنة ١٣٠٠ هـ فى استانبول .

٢ - التكملة والذيل للجوالىقى (ت ٥٣٩ هـ) ولم ينشر عمل الجواليقى بعد ، وما يزال مخطوطا في المكتبة الأصصية ودار الكتب المصرية .

٣ - سهم الاخطى فى وهم الألفاظ تأليف محمد ابن ابراهيم احتبلى (ت ٩١٧ هـ) ويوجد هذا الشرح مخطوطا بدار الكتب المصرية .

٤ - منحة الملك الوهاب تأليف عبد الملك بن دعسين (ت ١٠٠٦ هـ) ، ويوجد كذلك مخطوطا بالمكتبة الأصصية .

٥ - تحفة الأحباب وظرفه الأصحاب جمال الدين بن عمر بحرق الحضرمى (ت ٩٣٠) ، ومنه مخطوط في مكتبة الامبروزيانا .

وكثرت الشروح التي ألفت على درة الفواصى تؤكد لنا أن الدرة هي الأساس الثاني بجانب المقامات شهرة الحريرى ومكانته .

هذا وللحريرى مؤلفات نحوية مختلفة ، أشهرها « ملحقة الاعراب » ، وهى منقومة فى التحو اهتم بها المستشرقون فى وقت مبكر فنشره دى ساس فى باريس سنة ١٨٢٩^{١١} ، تم ترجمتها الباحث بتتو Pinto الى اللغة الفرنسية.

وضعها قبل او بعد مؤلفاته الأخرى . وعلى كل حال فقد بقيت هذه المؤلفات كلها بصورة كاملة او بصورة جزئية ، وطبع قدر منها عدة طبعات، غير أن مؤلفاته ما تزال بحاجة الى تحقيق علمي كامل يتم فى ضوء المخطوطات الكثيرة التي وصلت اليها من مؤلفات الحريرى، ونحاول فيما يلى تقديم فكرة موجزة عن كل مؤلف من مؤلفات الحريرى

★★★

كتاب درة الفواص فى أوهام الخواص كتاب لغوی هام ، عرفه الباحثون فى علم اللغة العربية واهتموا به كثيرا ، وطبع الكتاب عدة مرات ، حققه المستشرق الألماني توربكه سنة ١٨٧١ ، وقدم للنص بدراسة باللغة الألمانية عن الحريرى وكتب لحن العمة ، وقد اعتمد توربكه فى هذا التحقيق على عدة مخطوطات، منها أقدم مخطوطات الكتاب، وهي مخطوطة ميونيخ المعروفة المدونة سنة ٥٨٤ هجرية ، وطبع الكتاب فى مصر عدة مرات فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وطبع من الدرة بالأسبانية سنة ١٢٩٩ هـ . وكتاب درة الفواص فى أوهام الخواص أحد هذه الكتب الهمة التي أنهاها المغويون العرب فى لحن العمة، وأقدم هذه الكتب كتاب لحن العامة المنسوب للكسائى (ت حوالي ١٨٩ هـ) . وقد سجل الحريرى فى درة الفواص مظاهر للاستخدام المغوى شاعت فى عصره ، ورأها الحريرى مغایرة للنمط اللغوى التقديم ، فاعتبرها من الأخطاء التي ينبغي تقويمها .

هذا ويختلف علم اللغة الحديث مع نظره الحريرى وأنراهه حول هذه التلاوثر اللغوية التي جدت أهى أخطاء أم تطور ؟؟ ، ورغم هذا فكتاب درة الفواص عند الباحثين فى تاريخ اللغة العربية

والف الحريري في التحو كذلك قصيدة في : الفرق بين الصاد والفاء ، ضمها السيوطي في المزهر ، وما تزال توجد منها مخطوطة في برلين / توبنجن ، وينسب للحريري كذلك مخطوطة آخر في برلين توبنجن بعنوان : الفرق بين الصاد والفاء ، وقد رتب فيه الألفاظ المتساوية ترتيباً أبجدياً . وهذا نصف قليلاً لما لاحظ أن الخلط بين الصاد والفاء ظاهرة موجودة في كل اللهجات العربية على مستوى الالفاظ الأساسية ، ولكن هذا الخلط حدث في اتجاهين متباينين ، فنحن نقول في مصر (ض) بدلاً عن (ظل) ، (ضهر) بدلاً عن (ظهر) ، بينما تنطق الصاد في العراق نطق الفاء ، فتسمى الصاد كما نو كانت ظاء ، ولندرة استخدام الفاء في اللغة العربية لم يتم التحاة في مصر بتأليف الرسال الملعوية في الفرق بينهما ، وعلى العكس من هذا ألف التحاة والمغويون في العراق رسائل كثيرة لبيان الفرق بينهما ، واتخذت بعض مؤلفاتهم كذلك شكلًا منظوماً بأن نظمت الألفاظ ذات الصاد وأخرى من ذات الفاء في منظومات تعليمية لا تتوخى ابداعاً بل تلقن تلقينا ، ويبدو أن جهد الحريري يدخل في هذا الاطر .

تبقى بعد هذا من مؤلفات الحريري رسائله وشعره ، أما رسائله فقد اشتهرت منها رسالتان احدهما هي الرسالة السنينية والأخرى هي الرسالة الشينية ، وتوجدان في مخطوطتين في ليدن وبرلين . غير أن ياقوت الحموي قد نقل لنا نص الرسائلتين في معجم الأدباء (٢٢٧/١٦ - ٢٧٨ ، ٢٧٨ - ٢٨٢) . وقد اتزم الحريري في الرسالة الأولى أن تكون كل المفاظ بها حرف السنين لا تخلو منه كلمة ، أما الشينية فلا يخلو لفظ فيها من حرف الشين . وكيف لا

وستتمد ملحة الأعراب وشهرتها البعيدة من أنها منظومة في التحو ، ومن صفات العلوم شاهراً شاعت في العصور الوسطى ، وانتشرت في مرحلة سادها الاقتضاء بين اعكارات العمل العلمي الخلافي قد استفادت وأن الآتين بعمل جديد أ sisil لم يعد متاحاً ، ومن ثم فقد انصرف جهد المستغلين بالعلم إلى تلخيص ما أبدعته قرائح آنس بقين ، وإلى البراعة والتنفس في عرضه عرض حديثاً يعين على دراسته وحفظه ، واجتهد كثيرون في صب المادة العلمية وتنيتها داخل قوالب من النظم تحمي حدودها وتنعمها من الفباء والتسبيhan . وهكذا ظهرت منظومات العلوم تعبيراً عن فكرة عدم امكان الخلق الأصيل ، ودليلًا على براعة البارعين في عرض المادة القديمة فهم وشرا ، فهؤلاء قد حاولوا تيسير الحفظ والتعليم ، وأنى لهم أن يفكروا في الاجتهاد والبحث .

وقد أتيح لمنظومات البراعة في التحو شراح كثيرون ، ولعل الأسرة إلى ألبية ابن مالك (ت ٦٧٣هـ) وشروحه المتعددة تغني هنا عن الإسهاب ، أما ملحة الأعراب لحريري فسابقة على ابن مالك ، وكان اهتمام الشراح به بعيد المدى متصل بالحلقات . وأول شراح الملحة هو الحريري نفسه ، فقد ألف عليها كتاباً بعنوان شرح ملحة الأعراب ، ثم شرحها ابن مالك (مخطوطات الفاتيكان وجوتا وبرلين) ، وعلى بن محمد بن على القرشى (ت ٨١٩) وجمال الدين الحضرمي (ت ٩٣٠هـ) وطبع هذا الشرح بالقاهرة عدة مرات ، ثم شرحها الفاكهي (ت ٩٧٢) في كشف النقاب (مخطوطات هامبورج وليدن) ، والرملاني (ت ٨٤٤) ، وغيرهم ، وهكذا نالت ملحة الأعراب حظها من الشراح .

«مقامة» ، فالمادة (ق و م) مادة سمية أصلية تفيد اقامة والاستقرار ، أما الكلمة مقامة فقديمة قدم ديوان زهير وديوان ليد ، جاءت الكلمة عندهم بالمعنى الذي ذكره لسان العرب للكلمة اذ نص على أن «المقامة بالفتح المجلس أو الجماعة من الناس» ، ويبدو أن عادة القص في مجلس قبل بضم عددا من التلقين يستمتعون بفن راو أو قصاص أو محدث يقص عليهم ويتمتعهم كانت أساس التطور الدلالي الذي اكتسبته هذه الكلمة، فهذا القصاص يقف منهم موقف الخطيب ، فهو يقوم في المجلس بالتحدث إليهم والقص لهم ، فأطلق على حديثه هذا اسم «المقامة» ، وبهذا المعنى استخدمت الكلمة عند بديع الزمان الهمذاني ، اذ سأله أحدهم من الواقف متحدثا فقيل له : «غريب قد طرأ ٠٠٠ فاصبر عليه حتى آخر مقامته » - المقامة الوعظية ٠

وليس استخدام الكلمة المقامة سمية انص مدون أمرا بعيدا عن عصر بديع الزمان (٣٥٨ - ٣٩٨) مبدع اتقنات الأولى في الأدب العربي، فقد ألفت في القرن الثالث الهجري مجموعة من الكتب تحمل اسم اتقنات ، منها كتاب المقدمات لأبي جعفر ، محمد عبد الله اسكافي (ت ٢٤٠) الذي نقل ابن أبي الحميد مادته في نهج البلاغة ، ومنها مقدمات القلوب لأبي الحسين أحمد بن محمد التورى (ت ٢٩٥) - مخطوط تركي. ومنها كتاب: مقدمات الأولياء لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الأذردى (ت ٣٢٥) . وكل هذه الكتب ألقت باسم «المقدمات» ، ومن ثم فلم يكن بعيدا عن بديع الزمان أن يطلق على كتابه اسم «المقدمات» . وكلمة « مقدمة » تعني في استخدامها عند بديع الزمان والحريرى « الحديث المرتبط بمكان » وتعنى أحينا « الحديث البليغ المنمق » دوائر ارتباط

وقد استقر في نفوس المتفقين في عصر الحريرى أن البراعة في التعبير هي الفيصل والمحك، وهو هو الحريرى يثبت مقدرته اللغوية ومهارته في السبك بمثل هذه الرسائل . هذا وقد حفظ لنا العmad الاصفهانى ياقوت الحموى نصوصا شرية أخرى تسب للحريرى ، فتحن نجد رسالة الحريرى إلى ابن التلميذ الكاتب عند ياقوت (١٦ - ٢٨٤) ، وكذلك رسالته الأخرى إليه (١٦ - ٢٨٧) وخطابه إلى سعيد الدولة (١٦ - ٢٨٩) ٠

أما ديوان شعر الحريرى ، فمنه مخطوط في برلين / توبنegen يبدو أنه يضم بعض قصائد الحريرى ، ولعل هذا يكمل الصورة التي تقدمها لنا المقدمات بما تضمنه من قصائد ألحقت بعض رسائله ، فالمقدمات لست ثرا صرفا ، فالمقامة الواحدة تضم عند الحريرى نصوصا شرية ومقطوعات شعرية ، والرسالتان المشهورتان السينية والشينية تضمان كذلك ثرا وشرا . ورسالة الحريرى إلى ابن التلميذ تبدأ بيتين من الشعر (١٦ / ٢٨٧) ، وصدر رسالة الحريرى إلى سعيد الدولة يتذ من الشعر ياقوت (١٦ / ٢٨٩) ، كما أنه صدر له رسالة أخرى بستة أبيات من الشعر ، ويبدو أن استخدام الشعر في الرسائل الفنية مع الشر كان تقليدا شائعا بين المتأدبين في عصر الحريرى ، فابن التلميذ والمطرائي يتوسلاز أيض في رسائلهما إليه التي ذكرها ياقوت بالشعر وبشعر ، وعلى كل حل فدراسة القيمة الفنية لشعر الحريرى لا تيسر إلا بأن تنظر كذلك في المقطوعات والقصائد الكثيرة التي تضمنها المقدمات .

ثانية : المقدمات

أعلم من أتفيد أن نقف قليلاً عند كلمة

سند ، وصيغت مسجوعة العبارة زاخرة بالمعنى
الغريب ، وبين ما عند بديع الزمان في مقاماته من
سند وسجع وغريب . ومع هذا فيبدو أن
استخدام الاستناد لرواية شيء لم يحدث على لسان
من لم يخلعوا ، قد أثار كوامن نفس الحريري ،
فتجده في مقدمته وكأنه يعتذر لقارئه – يقول :
بأن البعض قد « يندد بأنه من مناهي الشرع »
أو أنه من « الانهم روايتها في وقت من الأوقات »،
ثم يقول : « اذا كانت الأعمال بالنيات وبها انقاد
العقود الدينات ، فلابد حرج على من أنشأ ملحا
للتبيه لا للتمويه ، وتحى بها منحى التهذيب
لا الأكاذيب » . وعلى هذا النحو يقدم الحريري
ارتباط السند والرواية بالعمل الجاد في علم الحديث
وغيره من العلوم الإسلامية ، لما كانت هناك
ضرورة لهذه المقدمة .

هذا وقد جعل الحريري مقاماته تقوم على
شخصيتين أساستين هما : الرواية الحارث بن
همام يروى عن البطل أبي زيد السروجي ، مقدما
لكلام أبي زيد السروجي بوصف جو المقامة
وملامساتها . وقد أور الأسمان من قديم تسؤال
المؤلفين ، تساؤل ابن العماد (شذرات الذهب
٤٢١ - ٤١٩ / ١١) وابن خلikan (٥٣٠٥٠ / ٤) .
على عادة المشتغلين بعلم الرجال – كلما صادفوا
اسما – عن الحارث بن همام هذا ، وكان أن
اهتدوا إلى أن الحريري « إنما عنى نفسه ، لأن
كل واحد كاسب ومنهم بأمره » ، وأن هذا من
الحديث « كلكم حارث وكلكم همام » . واختلفت
والروايات حول أبي زيد السروجي أيضا ،
وكأنه إذا لم يكن قد وجد إلا في خيال الحريري ،
فلا بد أن يوجد في روايات الراوين عن البشر
الحقiqين . فياقوت روى عن شيخ « ثقة » عن

بمكان ، الواقع أن الارتباط بالمكان أمر تمليه
عنوانين معظم المقامات ، مثل مقامة البعدادية ،
المقامة الدمشقية ، المقامة الحلبية ، المقامة السمرقندية ،
وتتمليه كذلك الطلال الاشتقاقية والدلانية لمدة
« قام » وكلمة « مقام » و « مقامة » على وجه
الخصوص .

تبدأ مقامات الحريري بمقدمة توضح مدى
علاقته بسلفه في المقامات بديع الزمان الهمذاني ،
وفيها يقول : « انه جرى بعض أندية الأدب
الذى ركبت في هذا العصر ريحه ، وحيث
مصالحه ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان
وعلامه همدان رحمه الله وعزى الى أبي الفتح
السكندرى نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ،
وكلاهما مجھول لا يعرف ونكرة لا تعرف ،
فأشعار من اشارته حكم وطاعته غنم الى أن أنشئ
مقامات أتلوا فيها تلو البدع وان لم يدرك الطالع
شأو الضلوع ٠٠٠ ليت دعوته تلبية المطیع في
مطاوعته جهد المستطیع .

ولتفق قليلا عند هذا النص للاحظ أن
الحريري مطلب باتفاقه أثر بديع الزمان
الهمذاني ، وأنه كتبها – فيما يقال – استجابة
لرغبة أحد أصحاب السلطان في زمانه .
وبدين الزمان نسيج مقاماته بأسلوب « الرواية »
 فهو يدون على لسان عيسى بن هشام ما رواه عن
أبي الفتح السكندرى ، وكلاهما – كما قال
الحريري – مجھول لا يعرف ونكرة لا تعرف .
فهل يكون هذا العمل بمعايير الجرح والتعديل
المعروفه في علم الحديث كذبا وافراء » ، وهل
تحرج الحريري من استخدام هذا الشكل المسند
لمقاماته ؟ . ان الباحثين يربطون أيضا بين أحاديث
ابن دريد التي ألفت في شكل رواية يتقدمها

للمقامات بقوله : إنها « تتحوى على جد القول وهزله ورفيق اللفظ وجزله وعزز البيان ودرره وملح الأدب ونواذه إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكسائين » ، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف العربية والأحاجي التحوية والمقاوی اللفویة والرسائل المتکرة والمخطب المحبرة والمواعظ البکیة والأضاحیک الملهیة مما أملیت جمیعه على لسان أبي زید السروجی وأسندت روایته إلى الحارث بن همام البصری . » فالمقامات اذن من صنع الحریری وأبو زید السروجی من نسخ خیاله .

ويشير ابن خلکان في وفيات الأعيان قضية تحديد اسم ذلك الحاکم الذي کتب له الحریری هذه المقامات ، وکن ابن الجوزی ویاقوت (٢٦٤ - ٣/١٦) قد ذکروا أن الحریری عرض المقامات الحریریة على أتوشروان بن خالد وزیر السلطان فاستحسنها ، وأمره أن يضییف اليها ما يشاکلها فأنماها خمسین مقامة « فناوش ابن خلکان هذه الروایة » ، رأیت في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحریری ، وقد کتب أيضًا بخطه على ظهرها أنه صنعتها الموزیر جلال الدین عمید الدولة أبي الحسن على بن أبي العز بن صدقة وزیر المسترشد أيضًا ، ولا شك أن هذا أصبح من الروایة الأولى لكونه بخط المصنف . » وهذا نلاحظ أن في نص یاقوت فيه تعبیر عن اعجج ذلك الوزیر بمقامة حریریة ، وأن نص ابن خلکان يمكن أن یفهم على اعتبار أن الحریری قد أعد للموزیر جلال الدین عمید الدولة نسخة مهداة اليه . ورغم عدم اطمئناننا إلى هذا التفسیر ، فان الفصل في هذا الأمر ليس بهام ، وما نهیم به هنا هو أن المقامات قد ألفت

الحریری أنه قل « أبو زید السروجی كان شيئاً شحذاً بلیغ ومکدنا فصیحاً وردد علينا البصرة » ، فوقف يوماً في مسجد بنی حرام ، فسلم ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاء حاضراً ، والمسجد غص بالتضلاء ، فأعجبتهم فصاحت ، وحسن صیغته کلامه وملاحتھ ، وذكر اسر الروم ولده كما ذكرناه في المقامات الحریریة وهي الشامنة والأربعون » . وفي موضع آخر یأتي یاقوت برواية معنفة معللة إلى أحد أصدقائه الحریری أنه عمل المقامات عن « صاحبة أبي زید المطهر ابن سلام البصری » (٢٢٢/١٦) ، وإذا بأبي زید السروجی یصبح عند القتفطي (ابناء - ٣ : ٢٧٦) كذلك هو المطهر بن سلام ، والواقع أن المطهر بن سلام تلمیذ الحریری الذي سمع عنه « ملحقة الاعراب شخصیة حقيقة » ، ولكن يبدو أن في جعله بطل المقامات شيئاً من التعسف . فهذه القصة وأمثالها عند یاقوت تعبّر عن محاولة بجعل هذا البطل الأدبي شخصیة حقيقة ، ولا مبرر لهذه المحاولة ، فلسنا هنا بقصد الفصل في قضية یشترط في رواتها وشهودها ما یشتترط فيهم من العدالة والثقة ، بل الأمر لا يتجرّ ور أن يكون ضرباً من ضروب التسلیة والتّقیف ، وشأن الحریری في هذا شأن مؤلف کليلة ودمنة ، وفي مقدمة الحریری اشارة واضحة إلى هذا : « ومن نقد الأشياء بعين المعمول ، وأنعم النظر في مبانی الأصول ، نظم هذه المقامات في سلك الأفادات وسلکتها مسلك الم موضوعات عن العمجمات والحمدات ، وله يسمع بمن ينأى سمعه عن تملك الحکایات » . فالمقامات اذن یُسْتَدِّعُ ورأیات يقاس صحة سندها بمغایر المجرى والتعديل ، بل هي قصة تعليمية یعرض فيها المؤلف جوانب من معرفته وبراعته . وقد عبر الحریری عن هذا في مقدمته

المغرب العربي مذكورة إلا في مقامة واحدة هي المقامة المغربية . فكان الحريري وضع نفسه في دائرة مركزها البصرة ومحيطها عدن جنوباً وسمورقد شمالاً والسكندرية غرباً وتبريز شرقاً . ويدو أن الاماكن التي نسبت إليها المقامات كانت أكثر الاماكن دوراناً في أحاديث القوم في البصرة حيث عاش الحريري .

ولكل هذه المقامات محور واحد عند الحريري، هو أبو زيد السروجي الذي قامت المقامات وصفاً وعرضها لبراعته اللغوية وفطنته ، كما دارت مقامات بديع الزمان حول أبي الفتح السكندرى . ويصدق هنا وصف ياقوت بطل المقامات الحريرية اذ يقول عنه انه « كان يغير زيه وشكله ويظهر في فنون الحيلة فضله » ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه وتصرفة في تلوبه واحسانه (٢٦٣/١٦) . الواقع أن أبي زيد السروجي يظهر في المقام الأولى تحقيقاً لرغبة الرواى الذى ود لو قابل « أدبها تفرج رؤته » غمة » وتروى روايته « غلته » . فإذا هو يلتقي به ويتجده « شخصاً ساخت الخلقة عليه أهبة السياحة » ، وله ونة السياحة ، وهو يطبع الأسباع بجوهراً لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجه وعظه . وقد احاطت به أخلاط من الزمر » (المقامة الأولى) وبعد أن أتى مقامته الأولى في الوعظ والزهد ، تابعه الرواى « فوجدته متأففاً لالتميذ على خبر سمير وجدى حنيد وقبالهما خابية نيد » . وفي مقامة أخرى يحدد لنا الحريري معالم شخصية أبي زيد قائلاً : « ألميت أبي زيد السروجي يتقلب في قوالب الانتساب ويختبئ في أسلوب الاكتساب فيدعى تارة أنه من ساسان ويعتزى مرة إلى أفيال غسان ويزر طوراً في شعار الشعراء » ، ويلبس حيناً كبر الكباء ، يد أنه مع تلوك حاله وتبين

وأن مؤلفها هو الحريري ، أما متلقوها فهم مئات الآلاف من القراء على مر التاريخ .

انتظمت في مقامات الحريري خمسون مقامة ، وغالباً ما ترتبط كل مقامة بمكان معين تنساب اليه، وفي هذا يبدو أمر بديع الزمان الهمدانى ، وكان الهمدانى قد سمى عدداً من مقاماته نسبة إلى أماكن بأعينها ، وذلك مثل : المقامة البلخية ، والمقامة اسجستانية ، والمقامة الكوفية ، والمقامة الأذرية ، ومقامة الجرجانية ، والمقامة الأصفهانية ، والمقامة البغدادية . ثم جاء الحريري فافتتح أثر بديع الزمان حتى أن كثيراً من مقاماته تحمل نفس الأسماء جغرافية كانت أم غير جغرافية . والأخريرة مثل : (المقامة الدينارية - المقامة الشعرية) . ولا بد أن نتف هذا لنحدد الأطار الجغرافي لخيال صاحب المقامات ، فالحريري نسب عدداً من مقاماته للأماكن في اليمن : المقامة الصنعانية ، والمقامة الزبيدية ، ومقامة الصعدية ، والمقامة العممية ، والمقامة التجارمية . ونسب عدداً منها إلى الحجاز ، مثل : المقامة المكية . وبعضها منسوب إلى أماكن في مصر ، مثل : المقامة الخلواتية ، والمقامة الدمياطية ، والمقامة الاسكندرية . ومنها ما هو منسوب إلى الشام ، مثل : المقامة الدمشقية ، والمقامة أنصورية ، والمقامة الخلية ، وهناك مقامات نسبت للعراق ، مثل : المقامة الكوفية ، والمقامة البغدادية ، والمقامة الفراتية ، والمقامة الحرامية ، والمقامة البصرية . وإلى ايران وأقصى شرق الدول الإسلامية نجد نسبة المقامات : الرازية والكرجية والسمورقدية والتليلية والشيرازية والتبريزية . والملحوظ أن كل الأماكن التي سُمِّيت بها المقامات تدخل في إطار الدولة الإسلامية ، غير أنها جميعاً في المشرق الإسلامي ، حتى أتنا لانجد

القاضى فقصصهما وتبين خصائصهما أبرز لهما دينارا من تحت مصلحة وقل لهم اقطعنا به الخصم وأفضلاته » ولكنهما يوصلان محولة أخذ المزيد ، فلا يملك القاضى إلا أنه « جبر بالفتى بدرى بهما رخصة بها له » (المقامة الشامنة) .

ونراه في مقامة الثانية عشرة يظهر في « ميس الشبان ولبوسه لباس الرهبان وبيده سجدة الشوان وفي عينيه ترجمة الشوان » وبعد أن أبدع ناثرا ونظموا عرقه الرواى أنه أبو زيد . وهكذا يظهر أبو زيد في أشكال متعددة ، وهو دائما يخلب الألباب ببيانه و بشعره . وشخصية أبي زيد هي محور المقامات حتى أنه لا تظهر بجوارها إلا شخصية الرواى ، وهو يصف المجلس ، أو يصف أبا زيد ، أو يمهد لفقرة شريرة أو لمقطوعة شريرة بعبارات ربط دقيقة ، وما أن يأتي دور أبي زيد حتى يأخذ بالألباب براعة وظرفا وجزالة وبيانا . والمقامات الحريرية لا تعرف إلا هاتين الشخصيتين ، وهما يظهران مع عدد من القوم لم يسم الحريري أسماءهم ، ولم يأت بهم إلا ليشعروا أن هذه النصوص الرائعة قد أقيمت في مجلس فنالاعجاب واستحقت الثناء .

هذا ولا تدور المقامات كلها حول الكدية بالفصاحة والدنس ، ولكن بعضها يتossى بموضوعات علمية ، فـ« مقامة القطعية » (الرابعة والعشرون) تتناول قضايا نحوية ، والمقامة الفرضية (الخامسة عشرة) وكذلك الطيبة (الثانية والثلاثين) في عدد من القضايا الفقهية. ولتنظر اليه وهو ينافش في جواز الرفع والنصب ، وهو يعرف آراء سيبويه وغيره من النحاة ، ويعرف تقدير المحنذف ، ويشرح المنصوب على الظرف وأنه لا يخضه سوى حرف ، وينافش العامل . وكأنه يرى أن شيئا من علم

محاله يتحلى برواء وروية ومداراة و دراية وبلاعه رائعة وبديهيه » . « فأبو زيد يظهر في مقاهم مختلفة محاولا بذلك ، وببراعة وفصاحة وليس أن يحصل على مراده ، وقد أمعن وأفاد ، وفي المقامة الثالثة نراه يتossى بالمرج كى يلفت إليه الأنظار ويقرب إليه الأموال فظهوره « وعليه سمل وفي مشيته قرل » وبعد أن عرفه الحارث وسأله عن أفعاله المرج ، كان رد أبي زيد السروجي :

تعارجت لا رغبة في المرج
ولكن لأقرع باب الفرج
وألتى جلبي على غاربي
وأسلك مسلك من قد عرج
فإن لامني أحد قلت اعذروا
فليس على أغرع من حرج

وفي مقامة أخرى نرى الرواى يسمع حدثه مع ابنه في الليل فيعجب للبراعة والمهارة والفصاحة إلى أن تعرف على القائل فإذا هو أبو زيد : « وجعلت استقرى صوب الصوت الليلي وأتوسم الوجوه بالنظر الجلى إلى أن لاحت أبا زيد وابنه يتحادثان وعليهما بردان رثان » (المقامة الرابعة) . وفي مقامة تالية نجد أبا زيد يظهر « شيئا في شملتين محجوب المقلتين » ، وقد اعتمد شبه المخلافة واستقاد العجوز كالسعاله فوقف وقفه متهافت ، وهي تحية خافت ولما فرغ من دعائه أمال خمسة في وعائه ، فأبرز منه رقاعا قد كتب بألوان الأصباغ في أوان الفراغ فناولهن عجوزه الحيزبون وأمرها بأن توسم الزبون ٠٠٠ » (المقامة السابعة) ، فهو يظهر في تلك المقامة وكأنه قد كف بصره أو أصيّب في عينيه ، وفي مقامة أخرى نراه وابنه يحتلان على القاضى كى يأخذنا منه شيئا ، وبعد أن تحدثنا إليه « وعي

ومقطوعات شعرية ، وما نظن عبارات الربط الا
وسائل حاول بها كاتب المقامات أن يربط هذه
الوحدات ببعضها .

المقامة تبدأ بمقدمة قصصية بسيطة على لسان
الراوى المؤلف ، ولتنظر في المقام الأولى لنجد

يحدثنا عن غربته في صنعاء وعن رغبته في لقاء
أديب فكان أن التقى به ، ثم وصف لنا هذا
اللقاء ، وهنا تأتي الوحدة الأساسية مقطوعة وعظيمة
على لسان أبي زيد السروجي :

أيها السادر في غلوائه ، السادل ثوب خيلائه ،
الجامع في جهالاته ، الجائع إلى خزيعلاته ، الام
تستمر على غيرك ، وتستمرىء مرعى بغيرك ، وتحتم
شتهى في زهوك ، ولا تنتهى عن لهوك ، تبارز
بعصيتك ، مالك ناصيتك ، وتجترىء بطبع سيرتك ،
على عالم سريرتك ، وتتوارى عن قريبك وانت برأي
رقيك ، وتستخفى من مملوكتك ، وما تخفي
خافية على مليكك ، أتفطن أن تستفعك حالك ، اذا
آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين تويقك
أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، اذا زلت قدماك ،
أو يعطف عليك مشرنك ، يوم يضمك محشرك ،
هلا انتهجت محجة اهتدائك ، وعجبت معالجة
دائرك ، وفللت شية اعدائك ، وقدعت نفسك
فهي أكبر اعدائك ، أما الحمام ميعادك ، فما
اعداك ؟ وبالثيب انذارك فما اعذارك ؟ وفي اللحد
مقيلك فما قيلك ؟ والى الله مصيرك فمن نصيرك ؟
طالما أيقظك الدهر فتلاعست ، وجذبك فتقاعست ،
وتجلت لك العبر فناعمت ، وحصص لك الحق
فتماريت ٠٠٠

وبعد أن انتهى أبو زيد من هذه المقطوعة
التي شغلت أكثر من نصف مقامة ، تأتي عبارة
ختامية تقول : « فلما رأى الجماعة إلى تحفذه ،

النحو ضروري في المقامات : « نزل النحو في
الكلام منزلة الملح في الطعام » . ويشرح الحريري
بعد هذا في صفحات غير قليلة ما جاء في مقامته
هذه من النكت العربية والأحادي التحويه . وهو
يحدثنا في المقام الفرضية (الخامسة عشرة)

افتنا في قضية حاد عنها
كل قاض وحار كل فقيه
رجل مات عن أخي مسلم حر
تقى من أمه وأبيه
وله زوجة لها أنها الجبر
أخ خالص بلا تمويه
فحوت فرضها وحاز أخوها
ما تبقى بالارث دون أخيه
فأشفنا بالجواب عما سأله
 فهو نص لا خلف يوجد فيه

ويمضي بنا الفحص في فتواه وكأن المقامة كتبت
لاستعراض هذه المأرث الفقهية . وهو ينافس
في المقامة الثانية والثلاثين أشياء كثيرة عن
الوضوء والسبود والصلوة وشروط ذلك
وما يتعلّق بذلك من تفاصيل فقهية ولكنّه لا يعرض
هذا بالفاظ سهلة بسيطة وافية الدلالة ، بل
يستخدم مثلاً كلمة « الشبعان » جمعاً لشعب بمعنى
مسيط الوادي ويستخدم كلمة النعل بمعنى الزوجة
« ما تقول فيمن توضاً ثم لم يل زوجة ؟ » .
وهو يعرض هنا ما عنده من معرفة لغوية وفقهية
عرضًا متعتمداً .

ولننظر بعد هذا إلى البناء الداخلي للمقامات ،
لنلاحظ أن المقامات تتالف من وحدات أساسية
وعبارات تربط بين هذه الوحدات الأساسية .
وهذه الوحدات هي المهدى الحقيقي من تأليف
المقامات ، وتضم ثريا فيما كما تضم قصائد

فانصرفت من حيث أتيت وقضيت العجب مما رأيت .

وسائل المقامات لا تكاد تخرج عن هذا النمط ، فالوحدات الأساسية ثورية وشعرية هي أركان المقامة . أما عبارات الوصف تقديمها أو تعليقاً فتائى لخدم الأركان الأساسية .

هذا وتأخذ محاولة استعراض المقدرة اللغوية والبراعة في استخدام الصيغ في بعض المقامات لوناً غريباً من اللعب باللغة ، وكأن اللغة ليست وسيلة لنقل فكرة أو إيحاء . فالقدرة المغربية (ال السادسة عشرة) حافلة باللعب باللغة ، ولنقرأ اليت الأول من المقطوعة الشعرية :

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَسْرًا وَارْعَ إِذَا مَرْءَ أَسَا
لنلاحظ أن البراعة في هذا اليت أن حروفه من اليمين هي حروفه من اليسار ، وكأن الحريري يتصور أن هذا اليت يقرأ من اليمين ومن الشمال ، وكأن اللغة العربية قد اقتصرت على الصوامت ، ولم تعد فيها حركات ، ولكن براعة الحريري شاعت أن تتيح فرصة اللعب باللغة ويبدو لي أنه ألف القطة الشعرية أولاً ثم أعد لها القدرة التثوية المناسبة والتعليق الشرى المناسب ، حتى تبدو وكأنها في سياق حديث غير مفتعل .

وهو في المقام السابعة عشرة يتسلل أيضاً باللعب اللغوي ، ففي هذه المقامات الفهيرية ، يورد فقرة ثورية غريبة ثم يعقب عليها قائلاً : هذه مائتا لفظة تحتوى على أدب وعظة فمن ساقها هذا المساق فلا مراء ولا شفاق ، ومن رام عكس قاليها وأن يردها على عقبها فليل الأسرار عند الأحرار . وهذه الرسالة التي : « أرضها سمائها وصبعها مسؤاًها » قد كتبت على نحو تقرأ

ورأت تأهله لمزايلة مرتكبه ، أدخل كل منهم يده في جيده ، فأفعى لها سجلاً من سيده ، وقال أصرف هذا في نفقتك أو فرقه على رفقتك بعد أن يتنهى هذا القسم من المقامات : بمقدمته وبوحدته الأساسية وبخاتمتها ، نجد الحريري يهدى لمقطوعة شعرية يود ذكرها بقصة طريفة ، مؤداها أنه تبعه إلى حيث يقيم فوجده على خبز سميد وجدى حينه خاتمة نبذة فقلت له : أيها هذا أ يكون ذاك خبرك وهذا مخبرك . وبعد هذا تأتي المقطوعة الشعرية :

لست الخميسة أبغى الخميسة
وأشتبك شخصي في كل شخصي
وصيرت وعطي أحبلة
أريغ القنيص بها والقنيص
والحانى الدهر حتى ولجت
بلطف احتيالي على الليث عisce
على أنى لم أهرب صرفه
ولا نبضت لي منه فريصه
ولا شرعت بي على مورد
يدنس عرضي نفس حريصه
ولو أنصف الدهر في حكمه
لاملك الحكم أهل القبيصه
وتنتهي المقام الأولى بالتعرف عليه .

هذا والحوار في المقامات محدود وقليل وناقص ولا يأتي إلا تقدمه لنص أو لشعر ، ومن الحوار البسيط نجده في هذه المقامات قبيل ختمها .

ثم قال : أدن مني فكل ، وإن شئت فقم وقل .
فالتفتت إلى تلميذه وقلت : عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى لتخبرني من ذا ؟ .
فقال : هذا أبو زيد السروجي سراج الغراء
وتاج الأدباء .

ولا يأتى بما يقاربها فضلاً عن أن يأتي بمنتها ، ثم رزقت بعد ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من المافق والمخالف ما استحقت وأكثر » (٢٦٧، ١٦) ٠

ثالثاً : المقامات بين الشرح والترجمات

كانت شهرة المقامات سبباً في اهتمام كثير من الشرح بها ، وكأنها كتب لتكون متنا يتغاب عليه الشرح ، تعليقات اللغوية وأراء النحاة وبايضاح الأمثل الواردة فيها وتفسيرها وباستخراج ما بها من تجنيس وتشبيه واستعادة وأشاره وایماء وتلويح وغير ذلك مما اهتم به البديعيون ، وكانت مجالاً لشرح عديدة ، وكانت كذلك مجالاً لتقديها وللاستدراك عليها ، فقبل ان يمضي وقت طويل على وفاة الحريري (ت ٥١٦) كان عبد الله بن الخطاب (ت ٥٧٦) قد ألف كتاباً بعنوان : الاستدراك على مقامات الحريري ، فانبىءى المنوى ابن برى (ت ٥٨٢) للرد عليه والانتصار للحريري ٠ (طبع هذا الرد في استانبول والقاهرة) ، وبعد ذلك علق عليهما موفق الدين عبد الطيف البغدادي (ت ٦٢٩) بكتاب سماه : الانتصار بين ابن برى وابن الخطاب فى كلامه على المقامات ، وهكذا دارت حلقة التأليف حول المقامات ٠

أما أقدم الشرح الذى ألفت على مقامات الحريري فهو شرح معاصره الفنجديهى (البندهى) ، انظر ياقوت (٢٦٢/١٦) وهذا الشرح الذى ما يزال مخطوطاً يعتبر أقدم شرح وصلنا اليه على مقامات الحريري ، وقد توفى مؤلفه سنة ٥٤٨ م . وتواترت بعد ذلك الشرح ، وقد وصلنا عدد كبير منها ، ذكرها بروكلمان فى كتابه تاريخ

به من أول كلمة الى آخر كلمة أو من آخر كلمة الى أول كلمة ، وكان هدف المؤلف هو ميل هذه الألعيب الملغوية ، التي أعجب بها معاصره أياً اعجب !! إنها حقاً «المقامة القهرية» . وفي مقامة أرقطه ، تجد لها بالحرروف العربية ، ثم ينضر الحريري أن الكتابة مجرد رمز لمتغير عن اللغة كظاهرة صوتية منطقية مسموعة ، وإنما حول أن يظهر براعته ومقدراته الملغوية بأن يؤلف رسالة رقطاء ، وتتوالى حروف كلماتها حرفاً منقوطاً وحرفاً غير منقوط وكأن نقط الحرف أو لعدم نقطه سراً فياً أو ديلاً بلا غياً ، ولقرأ في هذه المقامة قوله : «أخلق سيدنا تحب ، وبعقوبته يلب ، وقربه تحف ، وناته تلف ، وحلقه نسب ، وقطعته نصب ٠٠٠ (المقامة السادسة والعشرون) ٠

وهكذا حفظت المقامات تراكمات من السجع والجناس والطبق وحشداً من المعرف التحورية والفنية واستعراضاً للمعارف اللغوية ولعب بأشكال الحروف العربية ، فحقق بها فحقق بها ما اعتبرته قرون متعاقبة نموذجاً شرياً رائعاً . يقول العماد الأصفهانى في الخريدة : «إن وسى بلاغة الحريري ذهبى الطراز سجينى الأعجاز ، قسى الإسهاب والإيجاز ، ومتى قدر قس على ترصيع كلمة وتصريح حكمه ، حريري الوشى ، عراقى الوشم ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر وتميمة البر » وقال عنه ياقوت : «لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق منه كتاب اليه فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة واسعها له الألفاظ وانقادت له نور البراعة حتى أخذ بأزمنتها وملك لبقتها فالختار ألفاظها وأحسن نسقها حتى لو ادعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ولا يرد قوله

الأدب العربي ، لقد شرح المقامات كل من عبد الباقى الأنبارى (ت ٥٩٠ هـ) ونصر الدين المطرزى (ت ٦١٠ هـ) ، وعبد الله بن الحسين انعكربى (ت ٦١٦ هـ) وصدر الأفضل الطرائقى (ت ٦١٧ هـ) ، والشريشى ت ٦١٩ - ط بالقاهرة (٦١٢ هـ) والتفتازانى (ت ٧٩٢ بخط المؤلف فى ليدن) وأبو جعفر الباغى ، وأبو عبد الله السجلماوى ، وغيرهم . ومعظم هذه الشروح وصلت اليانا فى مخطوطات مختلفة ، وكلها يدل على اهتمام بعيد المدى بمقامات الحريرى .

وترجمت مقامات الحريرى فى القرن السابع انهجرى الى اللغة العربية ، وقام بهذه الترجمة فى الأندلس يهودا بن سليمان الملقب بالحرizi ، وقد زار الحريري المشرق العربى دارساً ثم أعمل فكره فى ترجمة مقامات الحريرى الى اللغة العبرية ، وألف بعد ذلك مقامات عبرية حاكى فيها الحريرى فكانت مقاماته عربية الفكر والأخيلة^(١) . وكانت مقامات الحريرى معروفة كذلك في ايران ، ويدرك الباحث ريبكا أن عددا من المؤلفين الفرس حاولوا التأليف على منهاها ، ومنهم قاضي حميد الدين (ت ٥٥٩ هـ) ، ومنذ أكثر من قرن طبعت ترجمة فارسية لمقامات الحريرى (لكتو سنة ١٢٧٣) ولاحتظت الباحثة كوبتشكوفا (أنظر ريبكا - تاريخ الأدب الايراني - بالألمانية) أثر المقامات في الأدب الفارسي الحديث ،

وخصوصاً في فن الرواية . وترجمت مقامات الحريرى في أواخر القرن الماضى إلى اللغة التركية كذلك (ط استانبول ١٢٩٠) ، ولم تقتصر ترجمة المقامات على اللغات الشرقية ، بل ترجمت إلى عدد من اللغات الأوروبية ، كان المستشرقان رايسبك (١٧١٦ - ١٧٧٤) وشولتسن (١٦٨٦ - ١٧٥٠) قد ترجمما قسمًا منها إلى اللغة اللاتينية ، فمهداً السبيل أمام دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) ليعمل على تحقيق النص . هذا ولا بد وأن نشير في هذا الصدد بالترجمة الممتازة التي أعدها الأديب الألماني ريكرت (١٧٨٨ - ١٨٦٦) فهي تبعق بالشدة العربية وبنغمات السجع العربي وبكل ما هو غير مألف في الآداب الأوروبية الحديثة من محسنات بديعية ، لقد نقل ريكرت مقامات الحريرى إلى اللغة الألمانية * نقلًا رائعاً فأصبحت علمًا عليه وأناحت للحريرى عند قراءة الألمانية مكانة وتقديرًا .

وهكذا أتيح لمقامات الحريرى ما لم يتح إلا للقليل من المؤلفات : شرحاً وتعليقًا ، ترجمة وتقلیداً ، فهل كانت المقامات حقاً ذلك التموزج الذي انتقد فيه كل التقليد الفية في التر العربى على ذلك النحو الأخاذ؟ لقد اختلف النوق الحديث عن كثير مما جاء به الحريرى ، ولكن يكفى هنا أن نقول إن مقامات الحريرى راقت الكثرين ، ثم ألهمت آخرين ، فشغلت المئين : مصورين * ومتربجين وباحثين .

* Rückert : Die Verwandlungen, 1826.
Kühnel : Islamische Kleinkunst, Berlin, 1925,
p. 41.

J. Schirmann : Die hebraische Uebersetzung der Magamen des Hariri, Frankfurt, 1930.
Pereikowitzsch : Al-Harizi, als Uebersetzer der Magamen al-Hariris, München, 1931.